النص الرابع: وَسائِلُ الْعِلْمِ وَمَصادِرُهُ

(عبد المجيد عزيز الزنداني، توحيد الخالق، دار السلام، مصر 1985.)

النَّصُّ Metin

أَوَّلاً: اَلْحَوَاسُّ الْخَمْسُ

1. أ.اَلْلِّسَانُ: وَهو آلَةٌ خَلَقَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ لِتَمْيِيزِ طَعْمِ الْمَوَادِّ الْمُخْتَلِفَةِ، وَإِنْ أُصِيبَ ٱلْإِنْسَانُ بِبَعْضِ ٱلْأَمْرَاضِ، فَقَدْ يَطْعَمُ بَعْضَ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَيَتَغَيَّرُ طَعْمُ الْبَعْضِ ٱلْآخَرِ. وَحُدُودُ عَمَلِ اللِّسَانِ ضَيِّقَةٌ جِدًّا، فَتَمْيِيزُهُ لِلطَّعْمِ مَحْصُورٌ فِي نِطَاقِ مَا لاَمَسَ اللِّسَانَ، بِشَرْطِ أَنْ يَذُوبَ فِي اللُّعَابِ. وَأَيُّ عِلْمٍ يَأْتِينَا مِنَ اللِّسَانِ فَهُوَ عِلْمٌ نَقْبَلُهُ مَعَ بَعْضِ التَّحَفُّظَاتِ. وَلَكِنَّ الْعُلُومَ الَّتِي نَكْتَسِبُهَا بِوَاسِطَةِ اللِّسَانِ مَحْدُودَةٌ جِدًّا. وَأَثَرُهَا لاَ يَكَادُ يُذْكَرُ فِي بِنَاءِ الْعُلُومِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ.

2. ب. اَلْأَنْفُ: وَهُوَ جِهَازٌ نَعْرِفُ بِهِ رَوَائِحَ الْمَوَادِّ ذَاتِ الرَّائِحَةِ. وَيَبْطُلُ عَمَلُهُ إِذَا أُصِيبَ ٱلْإِنْسَانُ بِمَرَضِ الزُّكَامِ. وَحُدُودُ عَمَلِهِ ضَيِّقَةٌ جِدًّا؛ إِذْ إِنَّ قُدْرَتَهُ عَلَى الشَّمِّ لاَ تَتَجَاوَزُ بِضْعَةَ أَمْتَارٍ، وَيَخْتَصُّ بِالْمَوَادِّ ذَاتِ الرَّوَائِحِ، وَمَا جَاءَنَا مِنْ عِلْمٍ بِوَاسِطَتِهِ نَأْخُذُهُ مَعَ بَعْضِ التَّحَفُّظَاتِ. وَالْعُلُومُ الَّتِي نَكْتَسِبُهَا بِوَاسِطَتِهِ مَحْدُودَةٌ جِدًّا. وَأَثَرُهَا لاَ يَكَادُ يُذْكَرُ فِي بِنَاءِ الْعُلُومِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ.

3. ت. اَلْجِلْدُ: وَهُوَ آلَةُ حِسٍّ لِمَا يَقَعُ عَلَى الْجِسْمِ مِنْ أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَى ٱلْإِحْسَاسِ بِهَا، فَيُمَيِّزُ بَيْنَ النَّاعِمِ وَالْخَشِنِ، وَالثَّقِيلِ وَالْخَفِيفِ، وَالْحَادِّ وَغَيْرِ الْحَادِّ، وَالْحَارِّ وَالْبَارِدِ، وَهُوَ لاَ يُدْرِكُ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ ثِقَلٌ مَعْلُومٌ، فَهُوَ لاَ يُحِسُّ بِالْجَرَاثِيمِ أَوِ الْكَائِنَاتِ الدَّقِيقَةِ، أَوِالضَّوْءِ أَوِٱلْأَمْوَاجِ ٱلْإِشْعَاعِيَّةِ كَأَمْوَاجِ الرَّادْيُو وَاللاَّسِيلْكِي، وَقَدْ يُخَدَّرُ فَلاَ يُحِسُّ شَيْئًا. وَحُدُودُ عَمَلِهِ ضَيِّقَةٌ جِدًّا، تُحَدُّ بِحُدُودِ الْجِسْمِ. وَلَيْسَ لَهُ أَثَرٌ يُذْكَرُ فِي بِنَاءِ الْعُلُومِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ. فَالطَّالِبُ كُلُّ عُلُومِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ بِغَيْرِ طَرِيقِ اللَّمْسِ أَوِ الشَّمِّ أَوِ الطَّعْمِ إِلاَّ نَادِرًا فِي بَعْضِ التَّجَارُبِ الْعَمَلِيَّةِ. وَمَعْلُومَاتُ الْجِلْدِ نَقْبَلُهَا إِجْمَالاً.

4. ث.اَلْعَيْنُ: هِيَ نِعْمَةٌ كُبْرَى بِهَا نَرَى ٱلْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ وَنُقَدِّرُ أَحْجَامَهَا وَأَبْعَادَهَا وَأَلْوَانَهَا وَأَشْكَالَهَا. وَقَدْ تُسْحَرُ الْعَيْنُ أَوْ تُخْدَعُ كَأَنْ تَرَى الشَّمْسَ كَقُرْصِ الْخُبْزِ وَهِيَ كَالْأَرْضِ: (1,305, 000) مَرَّةً، أَوْ نَرَى الْعَصَا فِي حَوْضِ الْمَاءِ مَكْسُورَةً عِنْدَ سَطْحِ الِانْفِصَالِ، أَوْ تَرَى الْمَنَازِلَ مِنَ الطَّائِرَةِ كَعُلَبِ السَّجَائِرِ. وَمَجَالُ عَمَلِهَا الْوَاضِحُ مَحْدُودٌ بِعَدَدٍ مِنَ ٱلْأَمْتَارِ، لَكِنَّهُ يَمْتَدُّ بِصِفَةٍ مُجْمَلَةٍ إِلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ. وَكُلُّ مَا يَأْتِينَا مِنْهَا لاَ نَقْبَلُهُ بِالتَّسْلِيمِ الْمُطْلَقِ، فَقَدْ يُرِينَا السَّاحِرُ التُّرَابَ ذَهَبًا، وَلَكِنَّهَا آلَةٌ هَامَّةٌ فِي بِنَاءِ الْعُلُومِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ. وَمُعْظَمُ ٱلْأَشْيَاءِ الْمَطْعُومَةِ، وَالْمَشْمُومَةِ، وَالْمَلْمُوسَةِ تَقَعُ تَحْتَ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ.

5. جَ ٱلْأُذُنُ: وَهِيَ نِعْمَةٌ كُبْرَى فِي مَجَالِ العِلْمِ البَشَرِيّ، فَبِهَا يَسْتَفِيدُ ٱلإِنْسَانُ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِ، وَكَأَنَّ ٱلأَرْبَعَ الْحَوَاسَّ السَّابِقَةَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا قَدْ أَصْبَحَتْ مُسَخَّرَةً لِلإِنْسَانِ، وَذَلِكَ بِوَاسِطَةِ نَقْلِ نَتَائِجِ عِلْمِهَا إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ السَّمَاعِ بِوَاسِطَةِ أُذُنِهِ، وَمَجَالُ عَمَلِ ٱلأُذُنِ وَاسِعٌ جِدًّا. حُدُودُهُ هِيَ حُدُودُ مُشَاهَدَةِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيّ بِأَكْمَلِهِ، وَتَمْتَدُّ حُدُودُ عَمَلِ ٱلأُذُنِ إِلَى مَا شَاهَدَهُ الْمُرْسَلُونَ، وَإِلَى مَا أَطْلَعَهُمْ عَلَيْهِ رَبُّهُمْ مِنْ غُيُوبٍ تَعَلَّمْنَاهَا مِنْ عِلْمِ اللهِ الْمُحِيطِ بِكُ ُلِّ شَيْءٍ. وَلَكِنَّ ٱلأُذُنَ أَيْضًا تُخْدَعُ. إِنَّ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَخْبَارٍ وَمَعْلُومَاتٍ كَثِيرٌ جِدًّا، مِنْهُ الْحَقُّ وَمِنْهُ الْبَاطِلُ، وَبِهَذِهِ ٱلآلَةِ يَتَعَلَّمُ طُلاَّبُ الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْ 90 % مِنْ عُلُومِهِمْ، كَمَا أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ 90 % مِنَ الْعُلُومِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهَا. وَنَحْنُ لاَ نَأْخُذُ مِمَّا جَاءَنَا مِنْ عُلُومٍ بِوَاسِطَةِ ٱلأُذُنِ بِدُونِ تَحَرٍّ أَوْ تَدْقِيقٍ فِي الْمَصْدَرِ الَّذِى يُحَدِّثُنَا بِعِلْمٍ أَوْ خَبَرٍ. كُلُّ هَذَا إِلَى جَانِبِ أَنَّ ٱلأُذُنَ تَسْمَعُ – إِلَى جَانِبِ أَصْوَاتِ اللُّغَةِ – أَصْوَاتَ مَا لَهُ صَوْتٌ مِمَّا حَوْلَهَا إِلَى مَسَافَاتٍ قَرِيبَةٍ.

6. قُوَّةُ التَّصَوُّرِ: إِنَّ فِي ٱلإِنْسَانِ مَقْدِرَةً عَلَى تَصَوُّرِ مَا يَسْمَعُ أَوْ مَا يُفَكِّرُ فِيهِ تُعِينُهُ عَلَى فَهْمِ مَا يَسْمَعُ أَوْ مَا يُفَكِّرُ فِيهِ. وَهِي نِعْمَةٌ كُبْرَى تُمَكِّنُ ٱلإِنْسَانَ مِنَ التَّخْطِيطِ لِحَيَاتِهِ، كَمَا أَنَّهَا سِلاَحُ الْمُخْتَرِعِينَ وَالْمُهَنْدِسِينَ. وَالْمَادَّةُ ٱلأُولَى لِقُوَّةِ التَّصَوُّرِ، هِيَ الْمَعْلُومَاتُ الَّتِي تَأْتِى مِنَ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، فَإِنَّ ٱلإِنْسَانَ يُرَكِّبُ وَيُحَلِّلُ مَا جَاءَهُ مِنَ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ فِي صُورَةٍ جَدِيدَةٍ مُبْتَكَرَةٍ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ ٱلإِنْسَانُ تَصَوُّرَ شَيْءٍ لَمْ تَأْتِهِ أُصُولُهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ.

7. إِنَّ قُوَّةَ التَّصَوُّرِ هِيَ مَصْدَرُالْخَيَالِ الْوَاسِعِ فِي حَيَاةِ ٱلإِنْسَانِ، وَلاَ يُمْكِنُ تَصْدِيقُ مَا تَأْتِى بِهِ قُوَّةُ التَّصَوُّرِ إِلاَّ بَعْدَ فَحْصِهِ جَيِّدًا أَمَامَ الْعَقْلِ. وَمُعْظَمُ ٱلأَوْهَامِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، تَنْبُعُ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ خَاطِئَةٍ.

8. إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْوَسَائِلِ السَّابِقَةِ وَجَدْتَ أَنَّ جَمِيعَهَا عُرْضَةٌ لِلْوُقُوعِ فِي الْخَطَأِ، فَكَيْفَ تُمَيِّزُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؟ لَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَنَا عَقْلاً يُمَيِّزُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَهُوَ إِذَنِ الْقَاضِى الَّذِى تُعْرَضُ عَلَيْهِ كُلُّ الْمَعْلُومَاتِ الْقَادِمَةِ مِنَ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ وَمِنْ قُوَّةِ التَّصَوُّرِ، فَيَفْصِلُ أَمْرَهَا. وَقَدْ يَقَعُ الْعَقْلُ فِي خَطَأٍ، لاَ مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ بِسَبَبِ تَغْرِيرٍ بِهِ أَثْنَاءَ عَرْضِ الْمَعْلُومَاتِ، كَأَنْ تُقَدَّمَ لَهُ مَعْلُومَاتٌ نَاقِصَةٌ أَوْ مُشَوَّهَةٌ. إِلاَّ أَنَّ الْعَقْلَ مَحْدُودُ الْقُدْرَةِ، كَمَا أَنَّ الْحَوَاسَّ الْخَمْسَ مَحْدُودَةُ الْقُدْرَةِ.

ثانيا: مَصَادِرُ الْعِلْمِ

9. ٱلْمَخْلُوقَاتُ: أَيْ مَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ: وَهِيَ الْمَطْعُومَةُ وَالْمَشْمُومَةُ وَالْمَحْسُوسَةُ وَالْمَرْئِيَّةُ وَالْمَسْمُوعَةُ. وَهَذَا الْمَصْدَرُ هُوَ مَصْدَرُ مَعْلُومَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي نَكْتَسِبُهَا كُلَّ يَوْمٍ.

10. اَلتَّعْلِيمُ الإِنْسَانِيُّ: بِوَاسِطَةِ اللُّغَةِ. وَمِنْ هَذَا الْمَصْدَرِ نَأْخُذُ كُلَّ الْعُلُومِ الَّتِي يَجْهَلُهَا الإِنْسَانُ لأَنَّهَا لاَ تَقَعُ فِي نِطَاقِ حِسِّهِ مُبَاشَرَةً، فَيَتَعَلَّمُهَا الإِنْسَانُ مِمَّنْ عَرَفَهَا بِوَاسِطَةِ اللُّغَةِ. وَعَلى هَذِهِ الْعُلُومِ قَامَتِ الْحَضَارَةُ الإِنْسَانِيَّةُ. وَهِيَ تُمَثِّلُ أَكْثَرَ مِنْ 90 % مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تُقَدَّمُ فِي الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ.

11. اَلْوَحْيُ: وَهُوَ أَرْقَى مَصَادِرِ الْعِلْمِ، لأَنَّ عُلُومَهُ تَأْتِي مِنْ لَدُنْ مَنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلاَ يَكُونُ إِلاَّ لِمَنْ يَصْطَفِيهِمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَخْتَصُّهُمْ بِوَحْيِهِ، وَيُؤَيِّدُ اللهُ رُسُلَهُ، حَمَلَةَ وَحْيِهِ بِالآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْمُصَدِّقَةِ لَهُمْ أَنَّهُمْ رُسُلٌ مِنْ عِنْدِهِ. وَعُلُومُ الْوَحْيِ أَرْقَى الْعُلُومِ وَأَعْلاَهَا، وَبِوَاسِطَتِهَا نَعْرِفُ خَالِقَنَا وَالْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِنَا عَلَى الدُّنْيَا، وَالْحَلاَلَ وَالْحَرَامَ، وَمَا يُرِيدُهُ اللهُ مِنَّا، وَلِمَاذَا نَمُوتُ، وَمَا الَّذِي يَنْتَظِرُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ. وَهَذِهِ الأُمُورُ لاَ يَسْتَطِيعُ الْعِلْمُ الْبَشَرِيُّ مَعْرِفَتَهَا وَحْدَهُ دُونَ هِدَايَةِ اللهِ وَوَحْيِهِ، وَلَيْسَ مِنْ مَوْقِفٍ لِلْعَاقِلِ أَمَامَ إِخْبَارِ الْوَحْيِ إِلاَّ الإِيمَانُ وَالتَّصْدِيقُ لِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ بَعْدَ أَنْ صَدَّقَ وَآمَنَ وَاسْتَيْقَنَ بِصِدْقِ مَصْدَرِ الْوَحْيِ.

12. قَدْ يُعْتَبَرُ ما يَسْتَرِقُّهُ الْجِنُّ مِنَ الْمَلاَ الأَعْلَى وَيُلْقُونَهُ إِلَى الْكُهَّانِ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ الْعِلْمِ، وَلَكِنَّ الْجِنِّيَّ يَخْلِطُ مَعَ الْحَقِيقَةِ 99 كِذْبَةً كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ. وَهَذَا يُلْقِي لَنَا الضَّوْءَ عَلَى صِدْقِ أَخْبَارِ بَعْضِ الْكُهَّانِ فِي بَعْضِ الأُمُورِ، وَلَكِنَّهُ لاَ يَصْلُحُ مَصْدَرًا لِلْعِلْمِ، بَلْ إِنَّ مَا يَقْرُبُ مِنْ 99 كِذْبَةً فِي كُلِّ مِائَةِ خَبَرٍ تَجْعَلُهُ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ الضَّلاَلِ، لِذَلِكَ جَاءَ نَهْيُ الإِسْلاَمِ عَنْهُ نَهْيًا شَدِيدًا. (بتصرف من: توحيد الخالق، ج. 2/13-19)

النص الأول: اَلْفَلْسَفَةُ وَالدِّينُ

(محمد محمد قاسم، مدخل إلى الفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت 1421هـ/2001 م)

النَّصُّ Metin

1. إِنَّ لِلْفَلْسَفَةِ قَاعِدَةً مُشْتَرَكَةً مَعَ الدِّينِ تَتَمَثَّلُ فِي اهْتِمَامِهِمَابِالْحَقِيقَةِ. إِنَّ أَحَدَ اهْتِمَامَاتِ الدِّينِ الأَسَاسِيَّةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا مَعَ الْفَلْسَفَةِ وَالْعِلْمِ، هُوَ تَحْصِيلُ مَعْرِفَةٍ مُوَثَّقَةٍ وَمُقْنِعَةٍ، إِلاَّ أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ أَمْرًا عَقْلاَنِيًّا خَالِصاً كَمَا هُوَ الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَلْسَفَةِ وَالْعِلْمِ. إِنَّ الدِّينَ يَدْعُو بِصُورَةٍ مِثَالِيَّةٍ إِلَى الالْتِزَامِ مِنْ جَانِبِ كُلِّ شَخْصٍ بِالْقِيَمِ الأَسَاسِيَّةِ الَّتِي تَحْفَظُ لَهُ بَقَاءَهُ، كَمَا تُحَافِظُ عَلَى صُنْعِ عَلاَقَةٍ طَيِّبَةٍ مَعَ الآخَرِ: الإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ. وَمِنْ ثَمَّ يَدْعُونَا الدِّينُ إِلَى أَنْ نَسْلُكَ عَلَى نَحْوٍ مُعَيَّنٍ فِي الْحَيَاةِ، وَأَنْ نَتَحَمَّلَ مَسْؤُولِيَّاتٍ اجْتِمَاعِيَّةً مُحَدَّدَةً.

2. إِنَّ الاِعْتِقَادَ الْخَاطِئَ بِأَنَّ الْفَلْسَفَةَ نَوْعٌ مِنَ الدِّينِ أَوِالْعَقِيدَةِ، أَمْرٌ يَنْبَغِي تَصْحِيحُهُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ، لأَنَّ هُنَاكَ وُجُوهًا للاِخْتِلاَفِ فِي نِقَاطِ الْبِدَايَةِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا وَفِي الْغَايَاتِ وَفِي الْوَسَائِلِ. إِنَّ الْفَلْسَفَةَ لَيْسَتْ عَقِيدَةً بِالْمَعْنَى الدِّينِيِّ، كَمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ طَرْحًا فِكْرِيًّا يُمْكِنُ أَنْ يَحُلَّ مَحَلَّ الدِّينِ، بَلْ إِنَّ الْفَلاَسِفَةَ قَدْ يَقُومُونَ بِمَايُعَارِضُ الدِّينَ أَحْيَانًا.

اَلْفُرُوقُ بَيْنَ الْفَلْسَفَةِ وَالدِّينِ:

3. إِنَّ الْفَلْسَفَةَ تُعْنَى بِالْبَحْثِ عَنْ إِجَابَاتٍ لأَسْئِلَةٍ مُحَدَّدَةٍ، وَكَذِلِكَ يُوَفِّرُ الدِّينُ إِجَابَاتٍ مِنْ نَفْسِ النَّوْعِ لِبَنِي الْبَشَرِ. اَلإِجَابَاتُ هُنَا وَهُنَاكَ تَنْشُدُ الْحَقَّ وَالْحَقِيقَةَ، إِلاَّ أَنَّهُ بَيْنَمَا نُلاَحِظ أَنَّ إِجَابَاتِ الْفَلْسَفَةِ تُصَوِّرُ مَسْعىً بَشَرِيًّا يَحْتَكِمُ إِلَى إِعْمَالِ عَقْلِ اْلإِنْسَانِ وَالاِسْتِنَادِ إِلَى تَجْرِبَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الاِسْتِدْلاَلِ، فَإِنَّ إِجَابَاتِ الْعَقِيدَةِ الدِّينِيَّةِ تَنْقُلُ وَحْيًا إِلَهِيًّا فِي غَالِبِ اْلأَمْرِ يَنْبَغِي الاِلْتِزَامُ بِهِ دُونَ مُنَاقَشَةٍ أَوْ تَعْدِيلٍ.

4. إِنَّ هَذِهِ اْلإِجَابَاتِ تَأْتِي رَدًّا عَلَى أَسْئِلَةٍ مِنْ نَوْعِ: مَا أَصْلُ اْلإِنْسَانِ وَمَا مَصِيرُهُ؟ مَا طَبِيعَةُ عَلاَقَةِ اْلإِنْسَانِ بِالْكَوْنِ؟ مَا طَبِيعَةُ اللهِ؟ وَمَا طَبِيعَةُ عَلاَقَتِنَا بِهِ؟ هَلْ هِيَ عَلاَقَةُ صُدُورٍ عَنْه؟ أَمْ عَلاَقَةُ عِلَّةٍ وَمَعْلُولٍ؟ أَمْ عَلاَقَةُ تَوَحُّدٍ؟ مَا طَبِيعَةُ النَّفْسِ اْلإِنْسَانِيَّةِ وَمَا مَصْدَرُهَا؟ وَهَلْ تَفْنَى بِفَنَاءِ الْجَسَدِ؟ أَمْ أَنَّهَا خَالِدَةٌ؟ هَلْ ثَمَّةَ إِرَادَةٌ لِلإِنْسَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَهَلْ هُنَاكَ حُرِّيَّةُ إِرَادَةٍ حَقًّا؟، مَا الْمَقْصُودُ بِسَعَادَةِ اْلإِنْسَانِ، وَمَا سُبُلُ تَحَقُّقِهَا، وَمَا أَنْوَاعُهَا إِنْ وُجِدَتْ؟

5. عِنْدَمَا نُقَارِنُ مَوْقِفَ الْفَلْسَفَةِ وَالدِّينِ مِنَ اْلإِجَابَةِ عَنْ هَذِهِ اْلأَسْئِلَةِ، نَجِدُ بَوَادِرَ الاِخْتِلاَفِ تَبْدَأُ فِي الظُّهُورِ. إِنَّ الْفَلْسَفَةَ تُبَادِرُ بِاسْتِخْدَامِ الْعَقْلِ وَالاِرْتِكَانِ إِلَيْهِ سَبِيلاً لِتَحْصِيلِ الْمَعَارِفِ دُونَ غَيْرِهِ، بَيْنَمَا يَسْتَنِدُ الدِّينُ إِلَى اْلإِيمَانِ أَوَّلاً، ثُمَّ يُعَوِّلُ عَلَى الْعَقْلِ. إِنَّ الْفَيْلَسُوفَ عِنْدَمَا يَسْتَخْدِمُ الْعَقْلَ يَبْحَثُ وَيُقَارِنُ وَيَسْتَحْسِنُ ثُمَّ يُقَرِّرُ، إِنَّهُ يَعُودُ إِلَى الشَّوَاهِدِ وَالْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَسْتَنِدُ إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى تُعْنَى بِطَبِيعَةِ الْمَادَّةِ وَأَصْلِ الْكَوْنِ وَتَرْكِيبِ الْجُزْئِيَّاتِ مِنَ الْعَنَاصِرِ...إلخ، بَيْنَمَا يَعْمَلُ الْعَقْلُ فِي اْلإِطَارِ الدِّينِيِّ فِي حَظِيرَةِ اْلإِيمَانِ وَالْعَاطِفَةِ وَلاَ يَخْرُجُ عَنْ نِطَاقِهِمَا.

6. إِنَّ الْعَقْلَ اْلإِنْسَانِيَّ لِشِدَّةِ طُمُوحِهِ وَقِلَّةِ خِبْرَتِهِ وَاسْتِنَادِهِ إِلَى الْمُشَاهَدَةِ حِينًا وَ إِلَى الاِسْتِدْلاَلِ حِينًا آخَرَ، يَسْتَغْرِقُ وَقْتًا أَطْوَلَ فِي الْبَحْثِ عَنْ حَلٍّ لِلْمُشْكِلاَتِ الْفَلْسَفِيَّةِ، بَيْنَمَا اْلإِيمَانُ الْمُبَطَّنُ بِالْعَاطِفَةِ يَسْتَقْبِلُ اْلإِجَابَاتِ ذَاتَ الطَّابِعِ الدِّينِيِّ وَدُونَ مُنَاقَشَةٍ، يُسَلِّمُ بِهَا الْمُفَكِّرُ الدِّينِيُّ وَيَبْشَرُ بِهَا. إِنَّ اْلإِيمَانَ يَدُلُّ عَلَى قَبُولِ رَأْيٍ أَوْ مَذْهَبٍ دُونَ الاِسْتِنَادِ إِلَى عَمَلِيَّاتٍ عَقْلِيَّةٍ، بَلْ إِنَّ هَذَا الرَّأْيَ أَوِالْمَذْهَبَ الْعَقَائِدِيَّ قَدْ يَكُونُ نَتِيجَةً لِوَحْيٍ يَأْتِي مِنْ عَالَمٍ مُفَارِقٍ لِعَالَمِنَا الطَّبِيعِيِّ، وَقَدْ يَكُونُ مَصْدَرُهُ كِتَابًا مُوحًى بِهِ كَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ يَكُونُ مَصْدَرُهُ اْلأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ. وَفِي كُلٍّ مِنْ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ فَإِنَّ ثَمَّةَ إِنْسَانًا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وُجُودُهُ وَدَوْرُهُ هُوَ الآخَرُ مَحَلَّ إِيمَانٍ: إِنَّهُ النَّبِيُّ أَوِ الرَّسُولُ، إِنَّهُ الْمُوحَى إِلَيْهِ.

7. إِنَّ الْفَيْلَسُوفَ وَهُوَ يَنْشُدُ الْمَعْرِفَةَ يُخْلِصُ تَمَامًا لِلْعَقْلِ قَبْلَ الْعَاطِفَةِ، بَلْ إِنَّهُ يُنَحِّي الْعَوَاطِفَ جَانِبًا مِثْلَ الْمُيُولِ وَالْأَهْوَاءِ الذَّاتِيَّةِ. إِنَّ الْفَيْلَسُوفَ يَرَى ضَرُورَةَ أَنْ لاَ نَبْدَأَ مِنْ مُسَلَّمَاتٍ أَوْ أَفْكَارٍ تُوَجِّهُ بَحْثَهُ وِجْهَةً بِعَيْنِهَا، وَتُنْكِرُ عَلَيْهِ حَقَّ الْبَحْثِ الْحُرِّ وَالِاجْتِهَادِ. إِنَّ أَغْلَبَ الْفَلاَسِفَةِ يَنْصَحُونَ بِضَرُورَةِ تَطْهِيرِ الذِّهْنِ مِنَ الْأَفْكَارِالسَّابِقَةِ الَّتِي قَدْ تُشَكِّلُ لَنَا أَصْنَامًا تُعَوِّقُ التَّفْكِيرَ الصَّحِيحَ.

8. بَيْنَمَا يُسَلِّمُ الْإِنْسَانُ الْمُتَدَيِّنُ بِأُمُورٍ لَيْسَتْ مَحَلَّ نِقَاشٍ، إِنَّهَا لَدَيْهِ بِمَثَابَةِ أُسُسٍ لِلْبِنَاءِ. أَلاَ نُسَلِّمُ نَحْنُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ بِوَصْفِنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؟ أَلاَ نَشْهَدُ بِوَصْفِنَا مُسْلِمِينَ بِاللهِ الْوَاحِدِ وَنَشْهَدُ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ كَمَا نَشْهَدُ وَنُسَلِّمُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ لِمَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً؟ إِنَّ هَذِهِ مُسَلَّمَاتٌ لاَ تَقْبَلُ نِقَاشًا أَوْ شَكًّا مِنْ قِبَلِ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ.

9. إِنَّ الْفَيْلَسُوفَ يَبْدَأُ الْبَحْثَ مُتَجَرِّدًا، وَالْإِنْسَانُ الْمُتَدَيِّنُ يَبْدَأُ الْبَحْثَ مُزَوَّدًا بِأَفْكَارٍ أَوَّلِيَّةٍ يَعْمَلُ فِي نِطَاقِهَا، وَلِهَذَا فَإِنَّ الْأَوَّلَ يَسْتَغْرِقُ وَقْتًا أَطْوَلَ فِي بَحْثِهِ عَنِ الثَّانِي، بَلْ إِنَّ الثَّانِيَ يُنَاقِشُ وَيَبْحَثُ وَيَصُوغُ الْمُجَادَلاَتِ وَالْحُجَجِ فِي إِطَارِمَا يُؤْمِنُ بِهِ وَيَعْتَقِدُ.

10. إِنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ يَبْحَثُ وَيَكْتُبُ مُعْتَنِقًا فِكْرًا دِينِيًّا بِعَيْنِهِ، يَعْمَلُ فِي نِطَاقِ أُصُولِ هَذَا الْفِكْرِ، فَقَدْ يَكْتُبُ مُجَلَّدَاتٍ عَدِيدَةً يُنَاقِشُ طَبِيعَةَ اللهِ، وَسَيْطَرَتَهُ عَلَى الْكَوْنِ وَدِقَّةَ صُنْعِهِ وَعَلاَقَتَه بِالْإِنْسَانِ. لَكِنْ مَهْمَا تَكُنْ بَرَاعَتُهُ فِي الْكِتَابَةِ عَنِ اللهِ، وَفِي الْأَدِلَّةِ الَّتِي يَسُوقُهَا بُرْهَانًا عَلَى وُجُودِ اللهِ، فَإِنَّ كُلَّ ما يَقُومُ به يَنْطَلِقُ منْ تسليمٍ أَوَّلِيٍّ بِوُجُودِ اللهِ.

11. أَمَّا الْإِنْسَانُ حِينَ يُفَلْسِفُ وَيَتَّخِذُ مَوْقِفًا فَلْسَفِيًا فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي كُلِّ الْحَالاَتِ مُتَجَرِّدًا مِنْ أَيِّ مُسَلَّمَةٍ أَوْ فِكْرَةٍ مُسْبَقَةٍ إِنَّهُ يَبْحَثُ أَيْضًا فِي مُشْكِلَةِ الْأُلُوهِيَّةِ، يَبْحَثُ فِي طَبِيعَةِ اللهِ وَفِي وُجُودِهِ. لَكِنَّهُ يَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْأُمُورَ تَنَاوُلاً غَيْرَ مُحَدَّدٍ سَلَفًا بِقُيُودٍ أَوْ شُرُوطٍ أَوْ مُسَلَّمَاتٍ. وَأَخِيرًا نَتَسَاءَلُ عَنِ الْغَايَةِ لِكُلٍّ مِنَ الْفَلْسَفَةِ وَالدِّينِ، هَلْ هِيَ غَايَةٌ وَاحِدَةٌ؟ لِنَطْرَحِ الْأَمْرَ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلِفٍ: هَلْ مَا يَتَوَصَّلاَنِ إِلَيْهِ مِنْ نَتَائِجَ تَعْنِي الشَّيْءَ نَفْسَهُ؟

إِنَّ غَايَةَ الْفَيْلَسُوفِ الْأَثِيرَةَ هِيَ الْمَعْرِفَةُ لِذَاتِهَا بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا يُعَانِيهِ مِنْ أَجْلِ بُلُوغِهَا، بَيْنَمَا غَايَةُ الْإِنْسَانِ الْمُتَدَيِّنِ هِيَ تَحْقِيقُ أَكْبَرِ قَدْرٍ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالْإِيمَانِ.

(بتصرف من: مدخل إلى الفلسفة، ص/ 64-70)